مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 1 (رت 70) السنة: 2023

الحضور الشعري في النصوص النثرية بين الكم والدلالة

قراءة في كتاب " جدد حياتك" للإمام محمد الغزالي (1917- 1996)

Poetry in prose, between Quantity and Significance: the case of Al-Ghazali's *Renew your life*

ناصري علاوة[1]
جامعة الشيخ العربي التبسي –تبسة (الجزائر)
allaouanasri1958@gmail.com

تاريخ الوصول 2022/06/24 القبول 2022/11/28 النشر على الخط 2023/01/15
Received 24/06/2022 Accepted 28/11/2022 Published online 15/01/2023

ملخص:

يظهر في هذا المقال موقف محمد الغزالي في كتابه " جدّد حياتك" من مواكبة الشعر، وتوظيفه فيما له علاقة بوصف السلوك البشري، حيث كان هذا الأمر وقفا على النثر عموما، لقد استحضر الإمام كمًا هائلا من الأبيات الشعرية ووظفها حسب الموضوعات، والأهداف والمقاصد، وجاءت واصفة ذلك السلوك خاصة ما تعلق منه بأغوار النفس البشرية، وما يحركها من دوافع نبيلة كالصبر، والأناة، والأمل وأخرى دنيئة كالجزع والغضب واليأس...

ومنهجيا، حاولت أن أرصد الأبيات الشعرية التي استدعاها الإمام محمد الغزالي، وأنظر في مدى توافقها مع الموضوعات المطروحة، وكيف تناغمت مع الأمثلة التي ذكرها Dale Carengie. لا شك أنّ في الأبيات الشعرية المختارة حجة ودليلا يوافق ما أراده الشعراء قديما وحديثا في وصف سلوكات الناس.

الكلمات المفتاحية: شعر- إعجاب- سلوك - حضارة- حكيم.

Abstract :

This article deals with the stance of Muhammed al-Ghazali in his book « Renew Your Life » from keeping up with poetry and employing it in relation to human behavior, which was in general the subject of prose only. He has used a tremendous number of verses, and employed them according to the themes, purposes and goals to describe the human behavior, especially that related to the human psyche and what stirs it: noble motives such as patience, deliberateness, and hope, and ignoble motives such impatience, anger, and despair.

I tried methodologically to stand at the poetry verses that Imam Muhammed al-Ghazali choised and i think how it fits with the given subjects and how it fits with the examples and stories Dale Carengie bought.

No doubt, in that verses a proof which correspond to what poets needed in description people behaviors.

Key words: poesy- admiration- behavior- civilisation- wise.

[1] المؤلف المراسل: **ناصري علاوة** البريد الإلكتروني: **allaouanasri1958@gmail.com**

تقديم:

كان ظهور كتاب " جدّد حياتك" للإمام الغزالي (1917 -1996) مرتبطا بوضع جدير بأنّ يذكر، ويبعث من ذاكرة كثير من الكتاب الذين مارسوا فن الكتابة.

لقد اطلع الإمام، وأُعجب بما جاء في كتاب العلّامة الأمريكي ديل كارنجي Dale Carengie الموسوم بـ: دع القلق وابدأ الحياة how to stop worrying and start living والذي ترجمه الأستاذ عبد المنعم الزيادي.

وفي كتاب الغزالي " مقارنة بين تعاليم الإسلام كما وصلت إلينا، وبين أصدق وأنظف ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس والسلوك..."[1]

كان هذا اعتراف الإمام، وإعجابه بـ "ديل كارنجي" الذي يستحق كتابه القراءة والمتابعة بعيدا عن التعصب الجنسي الذي يمقته الإسلام، وتمنعه دساتير العالم، ولا وجود له في حياة وسلوك الإمام الغزالي الذي يُقِر بأنّه لا يكتب إشباعا لترف علمي قدر ما يكتب إصلاحا لأغلاط شائعة، وأوضاع جائرة...[2]

لقد كان الإمام الغزالي على معرفة بما تفعل أمريكا من خلال كل رؤسائها وحكوماتها بالمسلمين، ولم يسكت... ورأى في أمريكا كثيرا من العقلاء والحكماء في صورة ديل كارنجي Dale Carengie الذي ساق في كتابه "دع القلق وابدأ الحياة" عددا من التجارب التي عاشها رجال ناجحون، رجال لم يتعلقوا بالغد المرتقب، بل انغمسوا إلى الأذقان في حاضرهم وحده، ويواجهون مطالبه، ويعالجون مشكلاته، فأمّنوا بهذا المسلك الراشد يومهم و غدهم جميعا، ثم أهدوا لنا خلاصات تجاربهم في هذه الكلمات: "ليس لنا أن نتطلع إلى هدف يُلوّح لنا باهتا من بُعد، وإنّما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بيّن" [3]

أولا: أهمية الكتاب:

يُعد كتاب "جدّد حياتك" للإمام محمد الغزالي أحد النماذج الحية للخطاب الديني في قراءته لأدب النفس والسلوك البشري، وقد سلك فيه صاحبه طريق الحق الذي دافع عنه، وهو حي، ولم يخش فيه أحدا.

وفي الكتاب عرض الإسلام في حشدين متمايزين:

الأول، من نصوصه نفسها، والآخر من النقول التي تظاهرها في كتابات الأستاذ الأمريكي .Dale Carengie

كان الإمام في كتابه قد جمع بين ثقافة دينية أهلته لأن يقدم الإسلام في أحسن صورة، وثقافة أدبية وشعرية على الخصوص كشفت عن ذوق رفيع في اختياره للشواهد الشعرية ووضعها في المكان المناسب من أجزاء الكتاب، وقد عرف، كما جاء عند الأولين أنّ لكل مقال مقالا... كما تأكد عنده أن الشعر مستودع الحقائق والمعارف، وأنّه ديوان علوم العرب، " وأنّ الشاعر باحث عن الحقيقة في عالمه الباطني، أو في خارج هذا العالم" [4] وشاهد صوابهم وخطأهم، وأصل يرجعون إليه، فيه الحق والحكمة ومجنى ثمر العقول، وهادٍ ومرشد، واعظ مثقف، ويخلّد الآثار.

1 محمد الغزالي: جدد حياتك، ط3، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة– الجزائر، 1406هـ/ 1986م، ص10.

2الغزالي، نفسه، ص12.

3الغزالي، نفسه، ص23.

4 حسن ناظم: أنسنة الشعر (مدخل إلى حداثة أخرى: فوزي كريم نموذجا)، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص17.

ولا يمكن أن تخفى على الإمام الغزالي أهمية الشعر في حياة العربي عامة، والمثقف خاصة يستعمله في كل مجال ليكون له شاهدا ودليلا على صحة قوله... وهو النمط الأوفى والجنس الذي شحِذت على مسنّه ملكات العرب في القول، وعلى إيقاعه صرفوا الكلام وأجروا اللغة حتى ملأ أفقهم الأدبي وسدّ حاجتهم إلى أيّ شكل سواه، يحربون بأبياتهم اقتدارهم، ويبرزون تفوقهم، واعتماده كذلك مرجعا لكل نمط في القول " ولأنّ الشعر موجود في العالم بأسره، وينفذ إلى أماكن يصعب علينا تصورها، تماما كالهواء الذي تنفس ونعيش... " [1]

وكان للشعر القديم والحديث حضور واضح عبر مقالات الكتاب الأربع والعشرين، وكان شاهدا ودليلا على قدرة الشعراء على وصف كثير من حالات النفس التي هي موضوع علم النفس مثلا...

لقد استطاع الإمام الغزالي في كتابه أن يربط بين ما جاء في كتاب Dale Carengie في العصر الحديث في حديثه عن تجارب الناس وقد سمعهم، وشاهدهم، كما عرفهم من خلال قصصهم، رؤساء أمريكا، وتجارها... وأفرادا عاديين ... وبين ما جاء في قصص القرآن والحديث النبوي، وقصص الخلفاء والمسؤولين مثلا، ورأى أنّ البعد عن الله لن يُثمر إلا علقما، ومواهب الذكاء والقوة والجمال والمعرفة تتحول كلها إلى نقم ومصائب عندما تُعرى عن توفيق الله وتحرم من بركته.[2]

تقسيم الكتاب:

والكتاب مئتان وثمان وثلاثون صفحة (238 ص)، مقسم على مقدمة، وخاتمة، وبينهما أربعة وعشرون مقالا، هي موضوعات ذات علاقة بالنفس البشرية منذ أول خلق إلى يومنا هذا، وهي ذات صلة بما جاء في النصوص الدينية، وكتابات Dale Carengie وأشعار الشعراء... ويرى الغزالي "ما أجمل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين، وأن يرسل نظرات نافذة في جوانبها ليتعرف عيوبها وآفاتها، وأن يرسم السياسات القصيرة المدى ليتخلص من هذه الهنات التي تزري به" [3]

والإمام محمد الغزالي يستدعي الشعر في مقال دون آخر، وينسبه مرة، ولا ينسبه مرة أخرى، كما يقدم التعليق على شعر دون آخر...

ومن هذه الموضوعات التي كان الشعر جزءا منها:

1. عش في حدود يومك.
2. الثبات والأناة والاحتيال، وقد ورد فيها ثمانية وعشرون بيتا لشعراء مختلفين.
3. هموم وسموم، وجاء فيها جزء كبير من قصيدة لابن الرومي (قرّب الحرص مركبا لشقي)
4. كيف تزيل أسباب القلق؟ وفيه ثلاثة أبيات بعضها للمتنبي تجري مجرى المثل والحكمة.
5. لا تدع التوافه تغلبك على أمرك.

1 جان ميشيل غوفار، ترجمة محمد حمود: تحليل الشعر، ط1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،2008، ص84.

2الغزالي، نفسه، ص22.

3الغزالي، نفسه، ص16.

6. قضاء وقدر... وفيه قصيدة طويلة مكونة من تسعة وخمسين بيتا للشاعر مصطفى حمام من الخفيف وأبيات للمعري وابن الرومي والمتنبي.
7. حياتك من صنع أفكارك.
8. الثمن الباهظ للقصاص.
9. لا تنتظر الشكر من أحد.
10. هل تستبدل مليون جنيه بما تملك؟
11. اصنع من الليمونة الملحة شرابا حلوا.
12. نقاء السر والعلانية.
13. بين الايمان والالحاد.
14. بقدر قيمتك يكون النقد الموجه إليك.
15. كن عصّيا على النقد، وفيه التمثيل بالبيت المشهور: لو كل كلب عوى ألقمته حجرا...

ثانيا: الحضور الشعري في النصوص النثرية بين القديم والحديث:

كثيرا ما يتسلل الشعر إلى نصوص نثرية سواء أكانت خطبا، أم رسائل، أم كتابات قصصية سردية، وكثيرا ما يتفق هذا الشاهد الشعري والمناسبة، أو طبيعة الموضوع، وهو تثبيت للمقاصد التعليمية فيميل إلى الحكمة أكثر... كما هو كشف عن طبيعة الشاعر أو مستعمله.

ومنذ القديم، ارتبط الشعر بالنثر الفني كالخطابة والرسالة، وقد أبان كُتابها عن فهم جيّد لتوظيف الشعر في تلك الفنون الأدبية وكانا رفيقين متلازمين، يقف أحدهما إلى جوار الآخر، يعضده ويؤدي معه نفس الوظيفة ومن يقرأ خطبة قس بن ساعده الإيادي المشهورة، يجد هذا التلازم بين الخطبة والشعر.

فالخطيب وهو قرين السؤدد والفخار والشرف والرياسة، يشهر بألوان اللّسن والبيان، وكان قس من هؤلاء، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : "رأيته في سوق عكاظ على جمل أحمر، وهو يقول: أيّها الناس اجتمعوا، واسمعوا... ويقول الجاحظ: ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم هو الذي روى كلام قس بن ساعده وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش وللعرب، وهو الذي عجّب من حسنه، وأظهر من تصويبه وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال" [1] ، وقد تأتى هذا التعجيب من خصائصه الأسلوبية، فالسجع والتوازن والطباق إحدى خصائص خطبة قس... يُضاف إلى ذلك ما اجتمع في الخطبة من معان وموضوعات هي قريبة إلى الدين السليم كالدعوة إلى التفكير في قدرة الله في خلق الكون، وإلى الذين يذهبون ولا يرجعون كناية عن الموت الذي يستوي فيه الكبير والصغير، والغني والفقير، وجاءت الخطبة موشاة بالشعر الذي جاء كالتالي:

1شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ط7، دار المعارف، مصر، 1970، ص415.

أيّها الناس

اسمعوا، وعـوا،

انـظـروا، واذكـروا

من عاش مات، من مات فات،

وكل ما هو آتٍ آت ! [1]

والخطبة – قديما — كالشعر فنّان قائمان على المشافهة، وفي بعض الخطب يجتمع المنثور والمنظوم من أجل توثيقه أي توثيق المنثور الصعب إبقاؤه بالمنظوم الطيّع حفظه، الأخف استيعابه.[2]

ويتفق النقاد أن السمع عنصر رئيسي في عملية المشافهة والانشاد الشعري، "فأذن العربي هي التي ساعدته على اختزان القصائد جيلا بعد جيل وحفظها في وعاء الذاكرة في وقت لم يكن التدوين منتشرا. كان السامع ذا حس مرهف وذوق رفيع [...] مما يجعل من قول جوتيو:" إنّ السمع أوجد لنا أرفع فنون الجمال: الشعر والموسيقى والبلاغة" قولا قريبا من الواقع... [3]

ومن الخطب التي اجتمع فيها المنثور بالمنظوم، خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي التي توجه بها إلى العراقيين مهددا، متوعدا... وهي التي جاء منها: يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها...

وقد عمد الحجاج إلى الأبيات الشعرية لتقوية كلامه، فذكر البيت والبيتين وقد يكون البيت أعمل في النفوس من الخطبة كلها، وفيه ضروب من الترغيب والترهيب، ومن الشعر الذي استدعاه الحجاج:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواقٍ حطم

لـيـس بـراعي إبـل ولا غـنـم ولا بجزار على ظهر وضـم

قـد لـفـهـا الليـل بعصلبـي أروع خـرّاج مـن الـــدّوي

مهاجر ليس بأعرابي[4]

وفي مقامات بديع الزمان الهمذاني (967م- 1007م)، والحريري (446هـ -516هـ)، وكتاب ألف ليلة وليلة شعرٌ كثير مع كونها قصصا نثرية.

ثالثا: الاحتفاء بالشعر والشعراء:

كان الإمام محمد الغزالي في مقاله "قضاء وقدر" قد استدعى كثيرا من الشعراء وتفاوت حضور الشعر من البيت الواحد إلى الثلاثة، إلى قصيدة كاملة... والعودة إلى الشعر بهذا الكم الهائل المصحوب بالمعنى الجليل الذي يستحق التقدير... هي عودة إلى الذاكرة الفاعلة التي نميزها على الصعيد الجمعي...

1عبد الجليل عبده شلبي: الخطابة وإعداد الخطيب، ط2، دار الشروق، القاهرة، 1407هـ/ 1986م، ص168–169.

2عبد الجليل مرتاض: اللغة والتواصل (اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، ط 2003، دار هومه، الجزائر، ص151.

3أحمد مبارك الخطيب: الإنشاد والغناء في الشعر الجاهلي، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية– سوريا، 2009، ص55.

4حنا الفاخوري (مع جماعة من أساتذة اللغة العربية): منتخبات الأدب العربي، ط5، المكتبة البوليسية، بيروت– لبنان، 1970، ص128.

والإمام الغزالي –من هذه الزاوية– حارس أمين على مقوّمات الأمة، وعلى حماية الحركة الأدبية عموما والشعرية خصوصا فضمن بذلك سلامة مسارها، وضمن للشعر كثيرا من الاستمرارية والسيرورة، وفيه جلال المعنى وجلال المقصد.

قال أبو الفضل السكري المعروف بـ: أحمد بن محمد بن زيد:

ان كان أغلق دوني بابه فلقد أعددت صبري لذاك الباب مفتاحا

وعنوان المقال يحيل القارئ على أنّ "إحساس المؤمن بأن زمام العالم لن يفلت من يد الله يقذف بمقادير كبيرة من الطمأنينة في فؤاده.

وقد أعجبه قول الإمام علي رضي الله عنه:

أي يومي من الموت أفرّ يوم لا يُقدر؟ أو يوم قُدِّرْ؟

يوم لا أُقدر لا أحذره ومن المقدور لا ينجو الحذِرْ !! [1]

ومن الناس من يلوذ بالسكون والتجرد، أو بالقعود والتماوت باسم التعويل على الله وإسلام القياد له... وقد رأى الإمام في هؤلاء جنونا وكفرانا... ومثّل لهم بقول الشاعر:

والسعي للأرزاق –والأرزاق قد قُسمت– بغي، ألا إن بغي المرء يصرعه

والبيت من قصيدة جميلة طويلة قالها الشاعر العباسي ابن رزيق البغدادي يصور من خلالها تواصل أسفاره طلبا للرزق في الأندلس، وهناك وُجد ميتا.

وفي بقية المقال، استدعى ثلاثة أعلام من كبار الشعر العباسي، فأبو العلاء الشاعر الفيلسوف أو فيلسوف الشعراء كان حاضرا بداليته المشهورة في رثاء أحد الفقهاء الحنيفيين وكان عزيزا عليه (من الخفيف).

غير مُجد في ملتي واعتقادي نَوح باك ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النعي إذا قيـ ـس بصوت البشير في كل ناد

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع عصنها المياد

وفي الأبيات نظرة فلسفية للموت، وقد سوّاها بالحياة... وفي القصيدة كاملة "اللوعة وعمق الفكر، والعاطفة الخفاقة، والحكمة العميقة في صور رائعة. [2]

أما الإمام الغزالي فيرى في تجربة أبي العلاء " الاعتدال إلى حد البرود، وقلة الاكتراث ومقابلة المباهج بشعور محايد..." [3] "وتعد أصدق مراثيه وأشدّها التياعا، إذ كانت فاجعته به الأولى، وهي فاجعة مزقت قلبه، وعجز عن الاصطبار عليها". [4]

أما المتنبي (300 هـ – 354هـ) فقد كان حاضرا ببيت مشهور (من الطويل):

ألا لا أرى الأقدار مدحا ولا ذما فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

1الغزالي: نفسه، ص75.

2الفاخوري: نفسه، ص301.

3الغزالي: نفسه، ص80.

4سامي يوسف أبو زيد: ابن الرومي (قراءة نقدية في شعره)، دط، دار عالم الثقافة،1433 هـ/ 2012م، ص236.

وهي قصيدة مشهورة في رثاء جدته، ومعنى البيت أنّ الحوادث لا تستحق مدحا على إحسان ولا ذما على إساءة لأنّها إذا بطشت لم يكن ذلك جهلا منها، وإذا كفّت عن البطش لم يكن حلما إذ الفعل في ذلك لله وإنما يُنسب إليها مجازا. [1]

ثم يورد ثلاثة أبيات لابن الرومي (221هـ / 838م- 283هـ/ 896م) من قصيدة طويلة بكى فيها ابنه الأوسط... وقد ظل أنين الأب خافتا في البكاء الصامت: (من الطويل)

وأولادنا مثل الجوارح أيّها فقدناه كان الفاجع البيّن الفقد
هل السمع بعد العين يُغني مكانها والعين بعد السمع تهدي كما يهدي
وما سرّني أن بعتُه بثوابه ولو أنّه التخليد في جنة الخلد

ويرى الإمام الغزالي فيما صدر عن ابن الرومي، واسترساله مع الأحزان التي تُضاعف كآبته، ولا تغيّر شيئا... أنها علامات الرجل الضعيف الذي أفزعه المصاب وتشتت أفكاره، وكان من واجبه أن يجابه الواقع ويستعد له.

ولنقاد الأدب والشعر رأي آخر في الدالية من ذلك ما قاله د. عبد الحميد الحر: "فإننا نقف عند قلب أبٍ يتفجر ويتصدع، بلغت فيه الفجيعة ذروتها، ولفت حبل قسوتها حول عنقه، فأعمته عما حوله، وأزاغت بصره عن دنياه، فجعلته في ظلمة عزلته عن سائر المحيطين به، وأهوت به إلى سحيق الانفراد الكئيب" [2]

والقصيدة من جهة أخرى "تعكس قلق الانسان – أي إنسان– إذ يجد نفسه أبا وقادرا على إسعاد تلك النفس بمداعبة طفله الأثير لديه، وإذا به يفقد هذه السعادة فجأة وهو في ريعانها، يفقدها إلى الأبد، فيُمسي في إبان الفاجعة لا هو حي، ولا هو ميت، وإنما هو أسير حلم كابوس ممتد لا ينتهي عذابه به..."[3]

وقد رأى خليل شرف الدين أنّ ابن الرومي "شاعر معذب منذ بداية القصيدة، لعب به القدر حتى النهاية، كان حين يقسو عليه يهرب إلى عالمه المشتهى... أولاده الذين تخطفهم الموت بين يديه". [4]

والامام الغزالي في مقاله "قضاء وقدر" يُعلم الإنسان الذي وخزته الأحداث أن يصبر صبرا جميلا، وأن يستحضر أمامه تجارب أولي الألباب وتجارب الذين هم معتدلون في فرحهم وحزنهم، وسرورهم ونفورهم، ثم يسوق كلاما حسنا لـ Dale Carengie أنّ أحدا منا لم يمنح القوة التي تجعله يقاوم ما ليس منه بُد، ثم يتبقى له بعد هذه المقاومة جهد يمكنه من خلق حياة حافلة سعيدة.[5]

وكما كان للناس موقف من الموت، فلهم موقف من ملاقاة الشيب، ولهم في ذلك تفسيرات وأقوال ... من ذلك ما أورده الامام الغزالي من شعر لم ينسبه لأحد:

ولما رأيت الشيب لاح بعارضي ومفرق رأسي قلت للشيب مرحبا
ولو خفتُ أني إن كففتُ تحيتي تنكب عني، رمتُ أن يتنكبا

1الفاخوري: نفسه، ص297.

2عبد المجيد الحر: ابن الرومي (عصره، حياته، نفسيته من خلال شعره)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان،1412هـ/ 1992م، ص 186.

3حسن فتح الباب: رؤية جديدة لشعرنا القديم (مأثورات من الشعر العربي في ضوء مفهوم التراث والمعاصرة)، ط1، دار الحداثة، بيروت– لبنان،1984، ص142.

4خليل شرف الدين: ابن الرومي، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، 1405هـ / 1985م، ص178.

5الغزالي: نفسه، ص84.

ولكن إذا ما حلّ كره فسامحت به النفس يوما كان للكره أذهبا

لقد أبدى الشاعر قبولا حسنا لهذا الضيف الذي فضّل الإقامة عند صاحبه وقد علم من التجارب أنّ أي انزعاج من الشيب لا ينفعه، بل يضره والشاعر بذلك سبر أغوار نفسه في أمر طبيعي يأتي الانسان يافعا وكهلا.

ويورد الإمام كلاما لـ Dale Carengie "إنّ السرعة التي نتقبل بها الأمر الواقع إذا لم يكن منه بدٌّ –مدهشة النتيجة– فإننا لا نلبث حتى نوطد أنفسنا على الرضا بهذا الواقع، ثم ننساه بعدُ كل النسيان. يقول وليام جيمس William James: كن مستعدا لتقبل ما ليس منه بُدٌّ، فإنّ هذا التقبل خطوة أولى نحو التغلب على ما يكتنف الأمر من صعاب. [1]

وجاء في قصيدة طويلة للشاعر محمد مصطفى حمام ما يلي:

علمتني الحياة أن أتلقى كل ألوانها رضا وقبولا

ورأيت الرضا يخفف أثقا لي ويلقي على المآسي سدولا

ومما لا شك فيه، أنّ الشعر قديما وحديثا قد تناول مثل هذه السلوكات الإنسانية، فالصبر خلق رفيع، والجزع أمر مشين، وأنّ الرضا بما كتب الله لنا أحسن ما يواجه به الإنسان المشاكل، ولنا في قول رسول الله –صلى الله عليه وسلم – الأسوة الحسنة:" اِتقِ المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس.

وفي مقاله "بقدر قيمتك يكون النقد الموّجه لك" حديث مطوّل عن الحسد الذي صنّفه الإمام في باب الرذيلة، وأشار إلى أنّه داء قديم قِدم الإنسان نفسه، وقدم أمثله من حياة الناس صغيرهم وكبيرهم، عاليهم وسافلهم – يحسد بعضهم بعضا.

ومن الأمثلة التي ساقها، كما حكاها Dale Carengie أنّ كثيرا من الناس يجدون تشفيا في اتهام شخص يفوقهم ثقافة أو مكانة أو نجاحا، مثال ذلك أنّي تسلمت رسالة من سيدة تصب فيها جام نقمتها على "الجنرال ويليم بوث" مؤسس جيش الخلاص [...]، وكتبت تقول إنّ الجنرال بوث اختلس ثمانية ملايين دولار من المساعدات التي جمعها للفقراء والمساكين.

ويعلق Dale Carengie: والحق أن هذه التهمة سخيفة، وهذه المرأة ما كانت تستهدف الواقع وإنّما كانت تبغي النيل من رجل عظيم، رجل أرفع منها بمراحل.

وفي هذا المقال، يورد الإمام محمد الغزالي بيتين من الشعر: (من البسيط)

إن يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا غيظا بما يجد [2]

إنّ ما جاء عند الشاعر إقرار بأنّ الحسد أمر طبيعي لا ينجو منه أصحاب المقامات والمراتب... فأهل الفضل –على فضلهم– محسودون... ولم يغير سلوكهم في الشاعر شيئا.

لا شك أنّ المتتبع لحياة الحاسدين، ويقف عند جزيئات أعمالهم، يجدهم أصحاب نفوس صغيرة، لا تقوى على مشاهدة الجمال والحسن عند من حباهم الله ذلك.

1الغزالي: نفسه، ص85.

2الغزالي: نفسه، ص218.

وقد صدق الفيلسوف الألماني شوبنهاور Arthur Schopenhauer (1788م- 1860م) حين قال: " ذوو النفوس الدنيئة يجدون المتعة في البحث عن أخطاء رجل عظيم..."

وقد ارتبط هذا المرض بالفراغ الذي يعيشه بعض الناس فنجدهم أتعب خلق الله لأنّهم ابتعدوا عن الله وعن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم الذي قال:" لا تُظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليَك" [1]وقد ارتبط الحسد دائما بوجود النعمة، فيكون الحاسد قد كره تلك النعمة، وتمنى زوالها عن المنعَم عليه... وهذا السلوك قائم بقوة بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العمّ والأقارب والموظفين... وقد أورد الإمام الغزالي كلاما للكاتب الأمريكي Dale Carengie يقول فيه:" في سنة 1862 كسب الجنرال GRANT لجيوش الشمال في الحرب الأهلية الأمريكية معركة حاسمة، وبهذا غدا معبود الجماهير في يوم وليلة، وتجاوبت أصداء هذا النصر في أوروبا نفسها. ولم تكد تمضي ستة أسابيع على هذا الفوز حتى قُبِض على GRANT وانتزع جيشه منه".[2]

لقد ثبت من تاريخ الأفراد والجماعات، أن داء الحسد إنما يكون بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس العمل، والعلم. فالأسواق وفيها يشتد التعامل بالمال الذي يكون عن طريق التنافس، أكبر الأماكن يزدهر فيها الحسد، ولأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد، حلت منها يد الآخر.[3]

وقد عالجت النصوص الدينية هذا الداء العضال بالعودة إلى قراءة المعوذتين، فهي شفاء -بإذن الله- من كل صنوف الأذى، سواء أحملتها هامة أم دابة أم إنسان...

«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ(1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقْ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبْ (3) وَمِنْ شَرِّ الْنَفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدْ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدْ(5) » سورة الفلق

فالإنسان الذي رزقه الله كثيرا من النعم، في حاجة دائمة إلى رب السماوات والأرض يقيه من عيونٍ تؤذيه.

وجاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم في باب النصيحة الواجبة للناس: لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا... وقال كذلك: الحسد يأكل الحسنات كما يأكل النار الحطب.[4]

كان الشعر الذي ساقه الغزالي، شاهدا صحيحا وقويا على قدرة الشعر على تناول الحالات النفسية منذ قديم الزمان إلى يومنا هذا، كما فعل العلم والفلسفة.

وكان القرآن والحديث قد تناولا هذا المرض العضال في النفوس البشرية... وجاء الحديث عنهما في قالب قصصي حواري يثير الانتباه... ولما كان كثير من الناس صما بكما عميا... يبقى العلاج مؤجلا إلى أنّ يأتي قوم سمّاعون للحق الذي يظهر فيما يظهر في واجب معالجة النفوس المريضة بالعودة إلى الله، وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

1الغزالي: نفسه، ص219.

2الغزالي: نفسه، ص221.

3أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج3، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ص195.

4أبو حامد الغزالي: نفسه، ص157.

وفي مقاله الموسوم بـ "اِصنع من الليمونة المالحة شرابا حلوا" حديث عن إنجازات الموهوبين وسط ركام من المشقات والجهود، ضاربا الأمثلة من حياة المسلمين، المؤمنين والمقصود بهؤلاء أصحاب اليقين والعزم ومثّل لهؤلاء بابن تيمية (661هـ - 728هـ) الذي عاش بين الديار المصرية والشام، وأظهر اهتمامه بمحاربة التتار وتحريضه الأمراء على ذلك.

وهو القائل: "إنّ سجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة". كان ذلك لما شاعت فتاويه في مسائل وجد منها حسّاده مدخلا لهم، فناقشوه وكفّروه، وبدّعوه، واعتقله الولاة وغربوه [...] إلى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوما، ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم...[1]

وأشار الإمام الغزالي إلى صعوبة اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب عند ضعيفي الهمم، ومن ثمة يبقى الكثير منهم يعيش في الوحل إلى أن يفارق الدنيا غير مأسوف عليه.

إنّ ما عاشه الناس في الليالي الحالكات تدفع الكثير منهم إلى تجاوزها وقد علموا أن الحاجة أم الاختراع، وأنّ مسيرة ألف ميل تبدأ بالميل الواحد، وأنّ بناء المنازل يبدأ لبنة لبنة ... على أن يكون الصبر إحدى علامات هؤلاء الرجال.

كان الكاتب الأمريكي Dale Carengie حاضرا بتوجيهاته التي منها:

كلما ازددت ايغالا في دراسة الأعمال العظيمة التي انجزها بعض النوابغ، ازددت ايمانا بأن هذه الأعمال كلها ما تمت إلّا بدوافع من الشعور بالنقص، هذا الشعور هو الذي حفزهم إلى القيام بها واجتناء ثمراتها.

نعم، فمن المحتمل أن الشاعر ملتون* لم يكن يقرض شعره لو لم يكن أعمى، وأن بتهوفن* لم يكن ليؤلف موسيقاه الرفيعة لو لم يكن أصم.

وفي هذا المقال، استدعى الإمام محمد الغزالي عشرة (10) أبيات من الشعر بعضه من العصر العباسي... العصر الذهبي للأدب العربي... من ذلك مثلا قول سلمة الجعفي يرثي أخاه، (من الطويل):

أقول لنفسي في الخلاء ألومها لك الويل، ما هذا التجلد والصبر؟ !

ألم تعلمي أنْ لست ما عشت لاقيا أخي إذا أتى من دون أوصاله القبر

كان الصبر –على الدوام– فضيلة يمتدح أصحابها، والصبر صبران: صبر على ما نحب، وصبر على ما نكره... ابتغاء مرضاة الله وهو الصبر الذي يوافق الشرع لأنه ضرورة دنيوية، كما هو ضرورة دينية.

1محمد علي كرد: كنوز الأجداد، ط2، دار الفكر، دمشق، 1404 هـ/ 1984م، ص 247.

* جون ملتون (John Milton): 1608/12/9 –1674/11/8: شاعر وعالم انجليزي من القرن السابع عشر، يعرف أكثر بقصيدته "الفردوس المفقود" (lost paradise) أصيب في فترة لاحقة من حياته بالعمى، وكتب حول ذلك قصيدة مكونة من 14بيتا شعريا. إلى جانب جيفري تشوسر ووليام شكسبير، يعتبر ملتون من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي.

* لودفيج فان بيتهوفن (Ludwig Van Beethoven) 1770/12/17– 1827/03/26: كان ملحنا وموسيقارا وعازف بيانو ألماني، وهو إحدى الشخصيات البارزة في الحقبة الكلاسيكية التي تسبق الرومانسية، في جميع العصور، وأكثرهم تأثيرا، وأبدع أعمالا موسيقية خالدة، في عام 1800 تقريبا بدأ سمعه يتدهور، وبحلول العقد الأخير من حياته صار أصم تماما، إلّا أن صممه هذا لم يمنعه من إكمال مسيرته التأليفية، فقد ألّف أحد أشهر الأعمال في تلك الفترة.

* بشار بن برد شعر عباسي، ولد أكمه عالم 96هـ/ 714م، وقتله المهدي عام 168هـ/ 784م لخروجه عن أعراف الخلافة والمجتمع، وقد ندم بعد ذلك.

ولما كانت الأمور تفهم بالقياس، فقد أورد الامام محمد الغزالي أبياتا شعرية ترتبط كلها بمتاعب تنزل بالإنسان، فيصبر عليها أو تقذفه في مهاوي الكفر.

قال ابن عباس:

أن يـأخـذ الله مـن عـيني نورهـما ففي لساني وسمعي منهما نور

قلبي ذكي، وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسيف مأثور

لقد علم هنا الصحابي الجليل أنّ ‹‹ إن يمسسكم قرح فقد مس الناس قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين›› آل عمران 140، وأنّ الله هو الذي خلقه من عدم، ومنحه الحياة والحس والحركة، ووهب له السمع والبصر والفؤاد وهي من النعم التي ما مثلها من نعم... كل ذلك قد يُسلب منه في طرفة عين.

ثم تجيء ثلاثة أبيات لبشار بن برد* (ولد 96هـ / 714م) يقول فيها:

وعيّرني الأعـداء، والعيب فيهـمو فليس بعـار أن يقـال ضريـر

رأيت إذا أبصر المرءُ المروءة والتقي فإنّ عمى العينين ليس بضرير

رأيت العمى أجرا، ودخرا وعصمة وإنّي إلى تلك الثلاث فقير

ويظهر بشار بن برد –هنا– رجلا حكيما، عاقلا، راضيا بالقضاء، صابرا على الأذى الذي يلحقه. وفي أبياته، وقبله ابن عباس حديث عن السلوك البشري الذي هو من موضوعات علم النفس... لكن الشعراء استطاعوا بما عندهم من قدرة على الفهم أن يتناولوا كيفيات تجاوز العقبات التي تمنعهم من الوصول... فيكونون كالقواعد، لا حركة ولا نشاط، وهو ما أشار إليه الإمام محمد الغزالي باستدعاء أبيات صالح بن عبد القدوس (–168هـ) وهو شاعر عباسي عمي في آخر أيامه.

والحقيقة أنّ هذه الأبيات تعكس موقفا آخر لبشار من آفة العمى، فهو أشد الناس تبرما بالناس، وأنّه كان يقول: الحمد لله الذي ذهب ببصري، فقيل له: ولِمَ، يا أبا معاذ؟ فقال: لئلا أرى من أبغض [...] فقد تعرض لضروب من الاستخفاف الاجتماعي المباشر، فتضاعف ردّه، وأظهر قوته الساحرة التي لا يملك غيرها، أو أقوى منها، فغُيِّر بعماه وقبح شكله من خاصة الناس وعامتهم. فواصل بن عطاء المتكلم المعتزلي المعروف قال في إحدى خطبه: من لي لهذا الأعمى الملحد؟! وقد بكى لمثل هذه الأقوال الجارحة.[1]

وفي مقاله "الثمن الباهض للقصاص" [2] وهو عشر صفحات، حديث عن النماذج الكبرى للرجال الذين لا تهزّهم الإساءات، ولا تستفزهم الجهالات وحماقات الآخرين، وقد علم هؤلاء مثلا قول عمرو بن كلثوم التغلبي (من الوافر):

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنَجْهل فوق جهل الجاهلينا [3]

وقول الإمام الشافعي (150هـ –204هـ/ 767م– 820م) (من الوافر):

يخاطبني السفيه بكل حمق فـأكره أن أكون له مجيبا

يزيـد سفاهة فأزيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا [1]

1عدنان عبيد العلي: شعر المكفوفين في العصر العباسي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، 1999، صص224–225.

2الغزالي: نفسه، صص115– 124.

3أحمد بن الأمين الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 75

والقارئ العاقل يتبين الفرق بين الشاعرين، والموقفين، ويدرك من ثمة التصرف الأرعن لشاعر جاهلي استفزه كلام الملك عمرو بن هند وأمه... وكان ما كان من سفك دم.

كما يدرك حكمة الشاعر الثاني... وقد علم أنّ السكوت حكمة... وأنّ البلاء موكل بالنطق. وقد حفل المقال بقصص تحكي مواقف الأنبياء والرسل من أقوال جارحة وأفعال دنيئة مارسها عليهم خصوم الدين والحق... وقد امتلأت صدورهم حقدا، ونفوسهم كراهية للنور الذي ملأ الدنيا حولهم.

وقد أورد القرآن الكريم أقوال هؤلاء الأقوام مخاطبين الأنبياء بكل سوء، ومن ذلك ما سمعه هود عليه السلام: ‹‹ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينْ. قَالَ: يَا قَوْمِ، لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينْ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينْ›› الأعراف 66- 68

كما كانت سيرة الصحابة والرجال الصالحين من بعدهم حاضرة لتكون دليلا قويا لوجوب مقابلة الإساءة بالإحسان لما في ذلك من أدب عظيم، وتطييب خاطر، وكبح جماح نفس وتطويق جانب من الإساءات سببها أن الإنسان في بعض تصرفاته يطلق العنان للسانه دون أن يأبه للنتائج.

وقد جاء الحديث النبوي الشريف رواية عن البخاري، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يُلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإنّ العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله تعالى لا يُلقي لها بالا يهوي بها في جهنم".

فالمقال دعوة إلى الرد السليم على كل حماقة أعيت من يُداويها، وتلك الردود السليمة يطمئن بها الناس، وقد أوردها محمد الغزالي حين ربطها بأسماء شخصيات كانت —ولا تزال– نماذج عالمية إنسانية لا يزال ذكرها مطلوبا، وأنّ الثناء على أعمالها واجب تربوي... دعوي.

من ذلك أنّ رجلا قال لأبي بكر: "والله، لأسبنك سبا يدخل القبر معك. قال: معك يدخل لا معي".[2]

وقال رجل لأبي ذر: "أنت الذي نفاك معاوية من الشام؟ لو كان فيك خير ما نفاك. فقال: يا ابن اختي، إنّ ورائي عقبة كؤودا، إنّ نجوت منها لم يضرني ما قلت، وإن لم أنجُ منها فأنا أشر مما قلت".[3]

إنّ ما نسمعه من هؤلاء وهؤلاء، يكشف بجلاء أهمية ضبط النفس فيما يوجه من كلام يُراد به الاستفزاز من جهات لا تعطي قيمة لرجال تربوا في مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما تكشف ردود الصحابة رضي الله عنهم أنّ الثبات والأناة والتعقل في الردود حكمة بالغة يتقوى بها العاقل، ويتعلمها الجاهل... خاصة إذا علمنا أنَّ ما سمعه أبو بكر، وأبو ذر كلام جارح. وكان لزاما على كل هؤلاء السفهاء الذين لا عمل لهم إلّا تنفيذ ما تمليه عليهم شياطينهم من الجن والإنس أن يعرفوا " أنّ كل إناء بما فيه يتضح..." وأنّ " لكل امرئ من دهره ما تعوذا" وأنّ " الطبع يغلب التطبع" وكما قال الخطيم (شاعر أموي) يخاطب سلمان بن عبد الملك مستجيرا (من الطويل):

1الشافعي: ديوان الامام الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر الامام محمد بن ادريس، إعداد وتعليق وتقديم محمد إبراهيم سليم، دت، دط، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ص20.

2الغزالي: نفسه، ص117.

3الغزالي: نفسه، ص117.

وأنت امرؤ عودت نفسك عادة وكل امرئ جار على ما تعودا
تعودت على ألا تسلم الدهر خائفا أتاك، ومن أمنته أمن الردى

كان من المفيد أن يعرف هؤلاء السفهاء أنّ الكاظمين الغيظ أعلى منزلة عند الله، وأنّه لا يستوي عالم وجهول، وسفيه وعاقل، ومتعوذ بالله من وساوس شيطان رجيم وغير متحصن بكتاب الله ساعة العسر...

وقد ثبت أنّ للمؤمن أعمالا يملأ بها ليله ونهاره، وهو دائما موصول بربّه يؤدي رسالته التي من أجلها وُجِد. وليكن الخلق الصالح في الأقوال والأعمال.

وللكاتب الأمريكي Dale Carengie حضور ذو دلالة، وقد جاء في كتابه "دع القلق وابدأ حياتك من جديد" أنّ التحلم مع الأعداء رحمة تلحق بالنفس قبل أن ينال الغير خيرها ويدركه بردها وبرُّها ... " ونقل في كتابه فقرة من منشور وزعته إدارة الشرطة بإحدى مدن أمريكا، وهي فقرة تستحق التنويه:" إذا سولت لقوم أنفسهم أن يسيئوا إليك فامحِ من نفسك ذكراه، ولا تحاول الاقتصاص منهم، إنّك إذ تُبَيِّتُ نية الانتقام تؤذي نفسك أكثر مما تؤذيهم".[1]

الحضور الشعري في المقال:

استحضر محمد الغزالي عبر عشر صفحات من المقال بيتا واحدا، ولم ينسبه لأحد (من الوافر)

ما يضير البحر أمسى زاخرا أنْ رمى فيه غلام بحجر. *[2]

والبيت المستشهد به كان كافيا لوصف حال من تملّك نفسه عند الغضب ليكون الحلم الصفة الغالبة، القاهرة لكل غضب يهلك صاحبه والناس أجمعين. وفي البيت تشبيه حال بحال وصورة بصورة في أسلوب شعري تمثيلي يجري مجرى المثل.

صحيح، لقد جاء في الأمثال: إذا كان بيتك من زجاج، فلا ترم الناس بالحجر... فالحجر يؤذي وهو سلوك إنساني تفرضه حالات من الغضب، والانسان السويّ من ملك نفسه عند الغضب، فسِعة الصدر علامة من علامات الحليم. وهو ما يؤكده الشاعر (من الوافر):

أحِنُّ لهم ودونهم فلاةٌ أنّ فسيحها صدر الحليم
كأن سرابها إذ لاح فيها خداع لاح في وجه اللئيم [3]

وفي مقاله الموسوم بـ: "لا تنتظر الشكر من أحد"، وهو تسع (9) صفحات (125- 133)، جمع الامام محمد الغزالي الآيات والأحاديث التي توجب الشكر والثناء على كل ما مَنَّ الله على عباده وما تحدّث به Dale Carengie في كتابه، عن أخبار الناس الذين عاشوا رفعا وخفضا في مجتمعات كان فيها الدولار يصنع حياة ومماة الأمريكيين. وقد مارست هذه العملة الأمريكية ضغطا رهيبا على حياة الناس.

هؤلاء الناس أشكال وأنواع في تقدير النعم التي لا يحصى لها عدد، وعليه أشار الإمام محمد الغزالي إلى نمطين من الناس إزاء تلك النعم فرآهم شاكرا لها وجاحدا.

1الغزالي: نفسه، ص119.

2الغزالي: نفسه، ص117.

يُنسب البيت للأخطل شاعر بني أمية، وقد جاء بيتا مفردا.

3علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة، ط17، دار المعارف (مصر)، 1383هـ/ 1964م، ص59.

ومن النعم التي توجب الشكر في هذا المقال إخراج الناس من الظلمات إلى النور أيْ من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة رب واحد كريم. وهؤلاء الناس متفاوتون في درجة الشكر وكيفية أدائه.

وكان الاهتمام بالجانب النفسي لسلوكات الانسان حاضرا بقوة لأنّ من يشكر النِعم يختلف جوهرا عن ناكر النعم وجاحدها... فما هي الأسباب الحقيقية لهذا السلوك أو ذاك؟

كان هذا الانسان في كل خطوة يخطوها، وتحت كل ظلال يتفيأها، وعند كل ثمرة يقطفها، ومع كل لقمة يأكلها هنيئا مريئا، وعند كل شربة ماء يرشفها... يذكر اسم الله عليها، فيحمده حمدا... ومن هؤلاء طائفة غلب عليها الشقاء فأنساها ذكر الله... ولم يعد بعدها شكر ولا حمد... وقد تحدّث القرآن الكريم عن ذلك قائلا: ‹‹ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَكُورْ›› سبأ 13.

فالطبيعة الإنسانية هي الطبيعة الإنسانية منذ خلق الله الانسان وركبه في أحسن صورة... ولم تبد عليها علامات التغيير.

إنّ الانسان الذي يسّر الله له أمره، فكان معافى في بدنه، معافى في سمعه، معافى في بصره ويملك قوت يومه... يشعر بكثير من الاطمئنان فيشكر الله على ما وهبه من نعم.

رابعا: حضور الشعر:

استدعى الامام محمد الغزالي تسعة (9) أبيات لشعراء مختلفين ولم يُسمِهم. وكانت له تعليقات على ما صدر عن هؤلاء الشعراء... وينطلق في ذلك من طبيعة النفس الإنسانية... كانت البداية مع الشاعر الجاهلي عمرو بن معد يكرب، وهو أحد فرسان العرب وسادتها، وقد أسلم ثم ارتد ثم رجع إلى الإسلام الصحيح ومن قصيدة له مشهورة، قال (مجزوء الكامل):

لمّا رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدًّا *
ربدتْ "لميسُ" كأنّها بدْرُ السماء إذا تبدّى
وبدتْ محاسنُها التي تُخفي وكان الأمر جِدّا
نازلتُ كبشهم ولم أرَ مِنْ نِزال الكبش بُدّا [1]

ووصف فيها شجاعته وبطولته لما رأى نساء قبيلته يهربن من العدو، وفيهن "لميس" صاحبته، ولما أدرك أنّ ذلك عار، نازل كبش القبيلة الغازية وحقق النصر الذي كان... ويتساءل الامام الغزالي عن سرّ هذا الإنجاز ومن وراءه؟

إنّ كثيرا من الناس تهيجهم للعمل بواعث مشوبة، ونسوا أنّ الله محيط بهم، يعلم ما يُسّرون وما يُعلنون.

تُشير الدراسات النفسية في مثل هذه المواقف والحالات أنّ الشاعر مدفوع بحُبّ الظهور أمام "لميس"، ولم يدر أنّ الاندفاع نحو هذه المنازلة لن تُحقق له أهدافا نبيلة خالدة كالتي تكون للدفاع عن المبادئ والقيم. وللشاعر في مثل هذه المنازلة آلاف من الناس تشبهه، يفعلون ما يفعلون تحقيقا لغرض آني... وهم بذلك يُقدّمون خدمات مجانية سرعان ما ينساها الناس... وكان من الحكمة أن يُنجِزوا أعمالهم لوجه الله...

1الغزالي: نفسه، ص129.

* القصيدة مثبتة تعليقا وشرحا في:

1. إيليا الحاوي: في النقد والأدب، ج1، ط5، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986.
2. فوزي أمين: الشعر الجاهلي دراسات ونصوص، دار المعرفة الجامعية (قناة السويس– مصر)، 1429هـ /2008م.

وكان المتنبي بعد عمرو بن معد يكرب قد أشاد بشجاعة وبطولة المرء مقرونة بتحقيق الأهداف النبيلة، قال (من الكامل):

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كلّ مكان

ثم يورد الامام الغزالي بيتا آخر مفاده أنّ صاحبه صنع معروفا كان سببا في إنقاذ شخص من الهلاك وكان بينهما خصام وعداوة، وقد فعل هذا إبعادا لملامة الناس التي تلحقه عاجلا أو آجلا.

وقد يوصف هذا العمل بالغش الذي هو انحراف عن الخلق الحميد، وهو سلوك منهيّ عنه دينا وأخلاقا وقانونا. وهو في كلّ الحالات، وقد أصبح ظاهرة مألوفة، ومتنامية وخطيرة لنتائجه الآنية والبعيدة، مفارقا للصدق والإخلاص الذي وجب أن يكون لله وحده.

يقول هذا الشاعر (من الوافر):

ذكرت تعلة الفتيان يوما وإسناد الملامة للمليم

كما استعان الامام الغزالي ببيتين آخرين هما:

إن سمعـوا ريبة طاروا بها فرحا عني، وما سمعوا من صالح دفنوا

جهلا علينا، وجبنا من عدوهمو لبئست الخلتان: الجهل والجبن

والحقيقة أنّ البيتين امتعاض من حال كثير من الناس نصّبوا أنفسهم خصوما للآخرين، وكانوا ولاء للشر ينصرونه... وكانوا في سيرهم يكرهون أهل العلم والفضل... فكانوا أصحاب رسائل قذرة ومهمات وقحة دفع ثمنها الامام الغزالي وقد صبر على أذى كثير من المتعصبين والحاقدين.

لقد وجد الامام محمد الغزالي في شعر الطغرائي، وفي لاميته المشهورة ما تخفف ألمه وحزنه... ومن الشعر الذي يمثل هذه الحقيقة (من الكامل):

غاض الوفاء وفاض الغدر، واتسعت مسافة الخُلف بين القول والفعل

وليكون نهاية المقال، بيت شعري يقول:

عجبا لا ينتهي من عجب وفتونا ليس يبلى من فتون !

خامسا: حضور Dale Carengie:

ضرب الامام محمد الغزالي لقارئه أمثلة مما سمعه Dale Carengie، فقد ساق أخبار الناس من مختلف البيئات المتعاملة بالدولار، فالموظفون في المصالح المالية يسيل لعابهم وتضعف قلوبهم أمام بريق العملات... فيقعون في الأغلاط التي تقودهم إلى السجن. وتشاء الأقدار أن يأتي من يُنقذ هؤلاء من السجن... ويكون مصير المحسنين كما جاء في الأمثال العربية... جزاء سنمار.

إنّ كثيرا من الناس يُنكرون أفضال الآخرين، بل الأسوأ من ذلك أنّهم يجازون المحسنين بما لا يليق، وقد ربط الامام هذا السلوك الأحمق بطبيعة النفس البشرية التي فقدت نضارتها، فهي –على الدوام – لا تقدر أيّ جميل.

وفي مقاله الموسوم بـ "هل تستبدل مليون جنيه بما تملك؟ !" رأى الامام أن يؤكد –مرة أخرى– واجب تقدير الانسان للنعم التي أسبغها الله عليه، وليكن الآخر في ضعفه وقوته، في سعته وضيقه، في صحته ومرضه، وفي جزعه وصبره... درسا من دروس الحياة.

إنّ إدراك هذه النعم قائمة أمام الانسان حين يخالط الناس أمامه، ويسمع أخبارهم، ويرى فيهم ما يدعو إلى السرور والاطمئنان أو الأسى والقلق... فيكون له ولغيره درسا.

ويسوق الامام الغزالي أمثلة من القرآن الكريم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلّم، وأخبار الخلفاء، والناس العاديين حسب ما جاء في أخبار Dale Carengie... وكانت النتيجة أنّ الانسان –مرة أخرى– بين شاكرٍ للنعم وناكرٍ لها.

وفي كلّ تلك الأخبار، يرى الامام محمد الغزالي وجوب استشعار المرء الصحة والعافية اللتين يتمتع بهما المرء حين يمشي، ويأكل، ويشرب ويعمل وينتقل من مكان لآخر...

ومن الغلط أن يحسب رأس ماله الذهب والفضة والأموال يكنزها، فهذه –مع فوائدها – سبب للمشاكل بين الناس عموما، وبين العاملين عليها وورثتها... وهي في كثير من الأوقات مشغلة تُبعد الانسان عن ربه... وضرب لنا مثلا عن آل روكفلر وآل فورد*.

وما وجب أن يفهمه الانسان أنّ الصحة نعمة... ولا يمكن أن تُستبدل بمليون جنيه... كما أنّ الصحة تاج على رؤوس الأصحاء... لا تدرَك قيمتها إلا بزوالها.

وفي كلّ المقال الذي جاء في سبع صفحات (135- 141)، استعان الامام الغزالي ببيت واحد ليكون له حجة ودليلا... والبيت على شهرته، فالإمام لم ينسبه لأحد، وهو كالتالي:

لعمري، ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

والبيت منسوب لعمرو بن الأهتم، شاعر جاهلي أدرك الإسلام، وهو من الجماعة التي نادت رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات.

ويرى النقاد أنّ شعره حُلل منتشرة، وهو من سادة قبيلته... والبيت جزء من قصيدة عدد أبياتها ثلاثة وعشرون (23) وهي مثبتة في حماسة أبي تمام في باب الأضياف والمديح ومطلعها:

ألا طرقت أسماء وهي طروق وبانت على أنّ الخيال يسوقُ

والشاعر هنا حكيم يعرف طبائع الناس في الضيق وفي السعة، وهم الذين إن شاءوا ضيّقوا على أنفسهم وعلى غيرهم، وإن أرادوا وسّعوا... وأراحوا ... فالأيام هي الأيام منذ أن خلق الله آدم. والحقيقة التي لا ينكرها بشر أنّ مصائب الناس وأفراحهم إنما هي من صنعهم... وهم في غناهم وصحتهم وعلوّهم وانتصاراتهم ينسون أنّ الله محيط بهم، وما أقبح الغفلة ترنو على قلوب الناس. وهم في فقرهم، ومرضهم وخفضهم وانكسارهم لا يذكرون... فبئست الخلتان: الجهل والجحود.

كان Dale Carengie حاضرا بما رأى وسمع عن حال رجل يدير محلا للبقالة وباءت تجارته بالكساد وفقد كثيرا من ماله فاستدان من غيره ليواصل عمله، وبينما هو ذاهب إلى البنك ليستدين مالا يُجدد به حياته، رأى رجلا مبتور الساقين يريد أن يعبر الطريق، وقد وجده مستعينا بآلة خشبية مزودة بعجلات وألواح... وحصل أن كان بينهما حديث... وكان مبتسما وبادر الرجلَ

بالتحية... قائلا: إنّه يوم جميل يا سيدي!! ووقف التاجر متطلعا إلى حال صاحبه وأدرك النعمة التي هو فيها، فله رِجلان صحيحتان سليمتان... ويستطيع أن يمشي بهما...

وقد اتضح أنّ من كلّ المقال، أنّ القرب من الله نجاة، وأنّ طلبه لا يُذهب سُدى، والعاقل من يدرك ضخامة النعم التي عنده فيشكر الله... وأمّا الحمقى –وما أكثرهم– فلا حديث عنهم.

خـاتمـة:

تبيّن مما سبق، أنّ محمد الغزالي، بتوظيفه الشعر، في خطابه الديني أنّه يُمجد الشعر الذي يملك مشروعية الحضور ليصف السلوكات البشرية في كل تناقضاتها، وهو دليل على قدرة الشعراء وعبقريتهم التي أضاءت الجوانب التي كان بإمكان الفلسفة وعلم النفس أن يقفوا عندها.

والشعر عن الغزالي، وعند الشعراء الحقيقيين بناء للقيم وإعلاء لها، وقديما قال أرسطو: الشعر تصوير الناس في حالة (فعل)، والفعل هو الذي يكشف معادن الناس... ويخرجهم إلى عالم القيم التي تمثل الانسان منذ ظهوره الأول، ففيه الحق والخير والجمال، والشعر في عمومه فن له خصائصه الجمالية المحببة إلى النفوس التي تميل إليه وتستأنس بما يقوله الشعراء.

ويبقى قلب الشاعر مرآة الكون، فيها يبصر كل عاطفة جليلة، شريفة، فاضلة كما رآها السابقون ومارسها اللاحقون.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- محمد الغزالي: جدد حياتك، ط3، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة– الجزائر، 1406هـ/ 1986م.

المراجع:

1. أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج3، دار المعرفة، بيروت– لبنان.
2. أحمد بن الأمين الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.
3. أحمد مبارك الخطيب: الإنشاد والغناء في الشعر الجاهلي، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية– سوريا، 2009.
4. جان ميشيل غوفار، ترجمة محمد حمود: تحليل الشعر، ط1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2008.
5. حسن فتح الباب: رؤية جديدة لشعرنا القديم (مأثورات من الشعر العربي في ضوء مفهوم التراث والمعاصرة)، ط1، دار الحداثة، بيروت– لبنان، 1984.
6. حسن ناظم: أنسنة الشعر (مدخل إلى حداثة أخرى: فوزي كريم نموذجا)، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006.
7. حنا الفاخوري (مع جماعة من أساتذة اللغة العربية): منتخبات الأدب العربي، ط5، المكتبة البوليسية، بيروت– لبنان، 1970.

8. خليل شرف الدين: ابن الرومي، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، 1405هـ / 1985م.

9. سامي يوسف أبو زيد: ابن الرومي (قراءة نقدية في شعره)، دط، دار عالم الثقافة، 1433هـ/ 2012م.

10. الشافعي: ديوان الامام الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر الامام محمد بن ادريس، إعداد وتعليق وتقديم محمد إبراهيم سليم، دت، دط، مكتبة ابن سينا، القاهرة.

11. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ط7، دار المعارف، مصر، 1970.

12. عبد الجليل عبده شلبي: الخطابة وإعداد الخطيب، ط2، دار الشروق، القاهرة، 1407هـ/ 1986م.

13. عبد الجليل مرتاض: اللغة والتواصل (اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، ط2003، دار هومه، الجزائر.

14. عبد المجيد الحر: ابن الرومي (عصره، حياته، نفسيته من خلال شعره)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1412هـ/ 1992م.

15. عدنان عبيد العلي: شعر المكفوفين في العصر العباسي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، 1999.

16. علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة، ط17، دار المعارف، مصر، 1383هـ- 1964م.

17. محمد علي كرد: كنوز الأجداد، ط2، دار الفكر، دمشق، 1404 هـ/ 1984م.